حكايات للأطفال

لماذا قذيفة مدفع؟!

بقلم روضة الفرخ الهدهد

رسوم أطفال

بسم الله الرحمن الرحيم

"كتبت القصة بعد سماع محاضرة السيدة آن جوين من فريق الإغاثة الطبي لنصرة الشعب الفلسطيني بعنوان"معاناة نابلس" بتاريخ١٣/٣/٢٠٠٣ والتي ألقيت في جمعية عيبال في عمان.

دَخلَ سعيدٌ الصفَّ وهوَ مُتضايقٌ ... فزميلُهُ إيادٌ لمْ يَصلْ بعدُ إلى المدرسَةِ ... كانَ الوصولُ إلى المدرسةِ صعباً حقاً .. فبعدَ أربعةِ أيامٍ منْ منعِ التَجوُّلِ ، سُمحَ لأهلِ نَابلسَ بالعَودَةِ إلى حَياتِهمْ العاديةِ والتجوُّلِ في شوارعِها لفتْحِ مَحالِّهِم وشِراءِ أغراضِهِم والوُصولِ إلى مَدارسِهِم أو أمَاكنِ عملِهِم ...

وانطلقَ سعيدٌ من بَيتِهِ إلى المَدرَسَةِ حاملاً شنطةَ كُتُبِهِ يستحضِرُ في فكرِهِ الدُّروسَ التي قَدْ يَأخذها اليومَ .. مشى على أكْوامٍ من الحِجارةِ تملأُ ساحةَ الدَّارِ؛ ثمَّ تسلَّقَ كومَةَ أتربَةٍ ورملٍ وحجارةٍ قربَ منزلِ صديقِهِ إيَادٍ... توقَّعَ أنْ يَرَى إيَاداً قربَ مَنْزلِهِ لمشاركتِهِ الذهابَ إلى المدرسةِ، لكنَّهُ لم يَرَهُ ، استمرَّ في طريقِهِ حتى لا يَتأخَّرَ .. لعلَّ إياداً قدْ سَبَقَهُ إلى المَدرَسَةِ .. لعلَّهُ كانَ مُستعْجِلاً في المَشي من بَيتِهِ بعدَ أربعَةِ أيَّامٍ منْ منعِ التجوُّلِ .. آهٍ من منعِ التجوُّلِ هذا !! كمْ هوَ قاسٍ وصعبٌ ...

أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ لَمْ يُغَادِرْ أَحَدُنَا الدَّارَ ، وَلَمْ يَلْعَبْ فِي الحَارَةِ وَلَمْ يَشْتَرِ مِنَ الدُّكَّانِ " الشِّبس أَو الشُّوكُولاتَة" ..أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ مُتَوَاصِلَةٍ وَنَحْنُ "جُوَّه الدَّارِ" وَجْهِي فِي وَجْهِ إِخْوَتِي وَأُمِّي ..كُلُّهُم عَصَبِيُّونَ.. كُلُّهُم لا يَتَفَاهَمُونَ مَعِي .. وَحْدَهُ إِيَادُ الَّذِي يَفْهَمُنِي .. وَحْدَهُ صَدِيقِي الَّذِي أَشْتَاقُ لِلْحَدِيثِ وَاللَّعِبِ مَعَهُ...

دخلَ سعيدُ الصفَّ مُتوقعاً أنْ يرَى إيَاداً.. ولكنَّهُ لمْ يكن هُنَاكَ !! ولمْ تكدِ الحِصّةُ الأولى تبْدأُ، ومُعَلّمُ الرياضيَاتِ يُعطي بَعضَ الأسئلةِ على اللوحِ، حتى إرتفعَ صَوتُ المديرِ في مَمرِّ المَدرَسَةِ، يُعْلِنُ للمعلّمينَ والطَّلبَةِ عنْ توقفِ الدِّراسةِ والاستعدادِ للانْصرافِ !!

وانطلقَ الأولادُ يتصايحُونَ وهُمْ يخرُجُونَ منَ المَدرسَةِ .وانطلقتْ مكبِّراتُ الصَّوتِ منَ الدبَّابَاتِ والسيَّاراتِ العسكريةِ الإسرائيليةِ تحثُّ النَّاسَ على إقفالِ محالِّهم التِّجاريةِ وسرعةِ العودةِ إلى بيوتِهم !! لم يَكُنِ الباعةُ قد باعُوا بضاعتَهم بعدُ، ولم يَكُنِ المُشترُونَ قد اشترُوا احتيَاجَاتِهم بعدُ... لم يَمضِ على السَّماحِ بالتجوُّلِ سوى ساعَاتٍ قليلةٍ ، فكيفَ يعيدون فرض منع التجول و إغلاقِ المَدينةِ بهذهِ السُّرعةِ !!

رَاوَدَتْ سعيدُ فكرةَ أنْ يَصِلَ بيتَ رَفيقِهِ إيادٍ لِيَرَاهُ ولَو لِدَقائِقَ قبلَ بَدْءِ مَنْعِ التجوُّلِ ولكنْ سيارَةَ الشُّرطَةِ الإسرائيليَّةِ وصوتَ الشُّرطيِّ الإسرائيليِّ المزعجِ أجبرَهُ على العَودَةِ إلى مَسارِ بَيتِهِ والإسراعِ في الوصولِ إلى دارِهِ ... كم يوماً سيدومُ مَنْعُ التجوُّلِ هذا يا تُرى ؟ وأيّ حارةٍ ستُداهِمُها الدَّباباتُ والجنودُ ؟ لم يكُنْ في ميدانِ نابلسَ أشجارٌ تُورِقُ .. ماتَتِ الأشجارُ منذ دَخَلتِ الدَّباباتُ الإسرائيليَّةُ نابلسَ .. اقتلعَتْها الدَّباباتُ والجرافاتُ الإسرائيلية ..لم تعُدْ شوارعُ نابلسَ صالحةً لسَيرِ السَّياراتِ عليها . اقتلعَتْ أرصفَتَها الدَّباباتُ والجرافاتُ .. حفَرَتْ فيها الحُفَرَ القبيحةَ ، وكسَّرت على جوانِبِها اليافطاتِ والأعمدةَ ...

كلُ شيءٍ تغيَّرَ في نابلسَ وإلى الأسوأ ... مقابرُ السيَّاراتِ التهمَتْ مُعظَمَ سيَّاراتِ البلدِ .. أيُّ سيارةٍ في أيِّ شارعٍ معناهُ موتُها وتدميرُها حَالاً. تدخلُ الدبَّابةُ الشَّارعَ فتصْعَدُ على السَّيارةِ وتدمرُها .. كانَ يُدهشُ سَعيد منظرَ الدبَّابَةِ تصعَدُ على السَّيارةِ وتدمرُهَا ، ولكنَّهُ عندمَا رأى سَيَّارةَ والدهِ وقدْ دمَّرتْهَا الدبَّابة ، حَزِنَ حُزناً شديداً، لم يعدْ لديهِ سيَّارةٌ يَركبُها ويصلُ بهَا إلى المَدرَسَةِ .. وعندما جاءَ " الونْشُ " الكبيرُ ليحملَ السيارةَ المُدمَّرةَ انقبَضَ صدرُ سَعيدٍ وأحسَّ أنَّ يداً شيطانيَّةً انتزَعَتْ قلبَهُ وذهبَتْ لترْمِيَهُ في مَقبَرةِ السَّـيَّـاراتِ .. لله كم كـانَ صـعـبـاً فـراقُ سـيـارةِ العـائـلـةِ!!

سَبعةُ أيّامٍ طوالٍ استمرَّ منعُ التجوُّلِ هذهِ المرّةَ .. قالوا إنَّ كميناً نُصِبَ لدبّاباتِ العدوِّ ، وأنَّ الحجارةَ رشقتِ الجنودَ من "حيّ القصبةِ" ، وأنّ رصاصاً قد أُطلقَ من بعضِ البيوتِ القديمةِ في نابلسَ ، فأعلنَتْ مكبّراتُ الصوتِ أنَّ منعَ التجوُّلِ سيُفرضُ سبعةَ أيّامٍ متتاليةٍ ..للهِ ما أصعبَ منعَ التجوُّلِ !! وما أصعبَ الجلوسَ في الدارِ بعيداً عنْ الأصدقاءِ والرِّفاقِ !!

لمْ يكنِ الوصولُ إلى بَيتهِ سَهلاً ، تَمنّى سعيدٌ لو كانَ بالإمكان رُكوبُ سيارةٍ ، ولكن حتى لو لم يفقدْ سعيدٌ سيارةَ أبيه ، فما كانَ بالإمكانِ لأيِّ سيارةٍ في نابلس السيرَ في شوارعِها .. فالحفرُ والأتربة والطينُ ومياهُ المَجاري تملأ الشّوارع. وعلى سعيدٍ أن يصلَ البيتَ بأقصى سُرعةٍ وإلا حُبس في مكانٍ ما .. فكرة عابرة مرّتْ في خاطره كالبرقِ تمنّى خلالها لو تَظاهرَ أنّهُ حُبس رغماً عنه في مَنزلِ صَديقهِ إيادٍ عندما كانَ عندهُ للإطمئنانِ عليه لعدمِ ذهابهِ للمدرسةِ ، ولكنّهُ عَدَلَ عن الفكرةِ ، وواصلَ سيرهُ إلى مَنزلِه..

في الأيام السبعة التالية ، كان الأمر صعباً للغاية ، كانت أصوات الانفجارات تصل مسامع سعيد بلا رحمة .. وعلم أن عدداً من بيوت " حي القصبة " قد نُسف . لم يتخيل سعيد إطلاقاً أن يكون بيت إياد من بين هذه البيوت .. ولم يتخيل أبداً أن يكون إياد مع أفراد أسرته في البرد القارس يقضون ليلهم في العراء انتظاراً لهدم منزلهم ..

جاءت الأخبار تحمل حزناً شديداً .. عائلة إياد قضت ليلتها على سطح المنزل وهم بملابس النوم حفاة وشبه عراة.. ليلة كاملة على السطح والجنود ببنادقهم يمنعونهم من النزول لأخذ المعاطف أو الأحذية للبسها.. ولما كان الصباح الباكر، زرع اليهود المتفجرات في جوانب البيت ودمروها تدميراً..

لماذا يزرعُ اليهودُ القنابلَ ويخلعونَ الأشجارَ؟!

لماذا يدمّرونَ البيوتَ ويتركونَ حجارتَها رملاً وحصى؟!

لماذا يقتلونَ السيّاراتِ ويعجنونَها عجناً؟!

لماذا يكرهونَ الحياةَ في الإنسانِ والشجرِ و الحجرِ؟!

لم يستطعْ سعيدٌ أن يسمعَ أخبارَ صديقِهِ إيادٍ ، ولا يُحَرِّكُ ساكناً..

إنتظرَ ساعاتِ الليلِ المظلمِ ، وتسلّلَ من فراشِهِ دونَ أن يُحِسَّ بهِ أحدٌ..

تسللَ من البيتِ .. و اتجهَ إلى دارِ إيادٍ في " حي القصبةِ " !!

فِي الطَّرِيقِ واجَهَتْ سَعِيداً دَبَّابَةٌ فِيهَا جُنُودٌ إِسرائيليُّونَ فَحاوَلَ الاختفاءَ عَنْ أنظارِهِم.. مَشَى قُرْبَ الحائِطِ مُلتَصِقاً بِهِ.. لَمْ يُحْدِثْ صَوتاً أو جَلَبَةً .. ظَلَّ واقِفاً يَنتَظِرُ أنْ تَتَحَرَّكَ الدَّبَّابَة .. ولكِنَّ الدبابةَ لم تتحرَّكْ .. انتَظَرَ طويلاً .. حَرَّكَ قَدَمَيهِ علَّهُ يُحِسُّ بِهِمَا.. أحَسَّ أنَّ قَدَمَيهِ قَدْ تَجَمَّدَتا مِنَ البَرْدِ.. وهُوَ لا يَستَطِيعُ العَودَةَ مِن حَيثُ أتى ولا يستطيعُ مُواصلةَ السَّيرِ إلى حَيثُ يُرِيدُ.. ماذا يَفعَلُ يا تُرَى ؟!

هلْ كلُّ أطفالِ العالمِ محبوسُونَ في بيُوتِهِم كما يُحبسُ أطفالُ نابلس ؟!
هلْ أطفالُ اليهودِ أنفسهُم يُحبسونَ في بيوتِهم كمَا يُحبسُ أطفَالُ نَابلس ؟!
لماذا حتى القططُ والكلابُ تتجوَّلُ في الطُّرُقاتِ والشَّوارعِ ولا يتجوَّلُ الأطفالُ؟! ظلَّتْ عيونُ سَعيدٍ تُحدِّقُ في الدَّبابَاتِ والجُنودِ؛ وما إنْ شاهدَ إنشغَالَ بعضِهم ببعضٍ عن النظرِ إليه، حتى أسرَعَ باعتلاءِ الحائطِ: كانَ الحائطُ أملساً، وكانتْ أصابعُ سعيدٍ قد تجمَّدتْ منَ البَردِ .. ولم يكُنْ التَّسلُّقُ سهلاً .. ولكنَّ حذرَهُ منْ أنْ ينتبهَ إليهِ الجُنودُ جَعلَهُ يستخرجُ المُستحيلَ حتى يَصلَ سَطحَ الدَّارِ .. ووصلَه، وارتمَى عليهِ، وعُيونُهُ لا تُفارقُ الجُنودَ والدَّبابَات ..

مَكَثَ في مَكانه بضعَ دقائقَ فأحسَّ بالبَردِ يَتغلغلُ إلى أعضَاءِ جَسدِهِ الداخليةِ...
انتقلَ البردُ من أطرافهِ إلى أعماقِ جَسدهِ .. هلْ سَيتوقفُ قلبُهُ منَ البَردِ يا تُرى؟
إذا كانَ المَوتُ قادماً إليهِ فليواجههُ بشجَاعةٍ .. ألمْ يَكنْ يتباهى دوماً أمامَ الغرباءِ
أنَّهُ ابنُ نابلسَ .. ابْنُ جبلِ النَّارِ ؟

ووجدَ سعيدٌ نفسَهُ يُكررُ : جبلُ النارِ .. جبلُ النَّارِ .. وأغمضَ عَينَيهِ
يتخيَّلُ لو أنَّ ناراً اشتعلتْ في رأسِ جبَلِ عيبالَ فيعيدُ الدفءَ إلى
قلبهِ و أوصالهِ .. وتذكرَ أنَّ اسمَ "جبلِ النارِ" كانَ لقباً لنابلس
لشجاعةِ أبنائِهَا في الحَربِ التي قادَها البَطلُ صَلاحُ الدين
الأيوبيُّ ضدَّ المحتلينَ من الفرنجةِ لأرضِ فلسطينَ ، أفلا يكونَ
هوَ الآخرُ إذن بشجاعةِ أهلِ نابلسَ وهو ابنها و سليل أبطالها ؟

تحركَ سَعيدٌ بضعفٍ وأخذَ يَزحفُ على السَّطحِ ،إنَّهُ يَعرفُ - كما يَعرفُ كلُّ أهل نابلسَ- أنَّ سطوحَ بيوتِ "حي القصبةِ" القديمةِ في نابلس ، تتصلُ ببعضِها البَعضِ .. فإذا صَعَدَ أحدُهُم سَطحَ أوَّلِ دارٍ وَصَلَ سطحَ آخرِ دارٍ فيها دونَ أن يَنزلَ الشَّارعَ .. ويستطيعُ الفردُ أنْ يَنزلَ متى أرادَ في أحدِ هذهِ البيوتِ فيَختبئُ بها إذا أرادَ .. وسعيدٌ يريدُ ذلكَ .. وبيتُ صديقِهِ إيادٍ ليسَ ببعيدٍ ، وهو سينزلُ من السَّطحِ إلى بَيتِهِ .. ولكنَّ البيتَ لم يعُدْ هناكَ ، فأينَ سينزلُ سعيدٌ يا تُرى؟ وكيفَ سيواصلُ الزحفَ على السُّطوحِ ؟ وصلَ سعيدٌ إلى ما كانَ بيتَ إيادٍ ، فإذا بهِ أمامَ هُوَّةٍ كبيرةٍ لا تعرفُ القرارَ... ألمْ يَنسفِ اليهودُ هذا البيتَ ؟ فكيفَ ينزلُ إليهِ ؟ وإلى أينَ يتَّجهُ ؟ وكيفَ يعودُ ؟

فِي تلكَ اللحظةِ دوّى إنفجَارٌ قويٌ آخَر.. وشاهَد سَعيدٌ عَن بُعدٍ - ومِنْ خِلالِ الظَّلام- كتلةً ضخمةً من اللهبِ تتناثرُ من خلالها وحولها كومةَ حجارةٍ تتهاوى من مَنْزِلٍ آخر في "حيِّ القصبة". إذنْ صدقوا أنَّهُم سينسفونَ ستةً وعشرين بيتاً في هذا الحيّ .. وها هيَ البُيوتُ تنهارُ واحداً بعدَ الآخرِ..

امتلأ قلبُ سعيدٍ بالحقدِ والكراهيَةِ لهذا المُحتَلِّ الإسرائيليِّ الذي يَهدمُ البُيوتَ ويَقتلعُ الأشجارَ ويدمرُ الطُّرقَ والسَّياراتِ ...لم يعد يتحمَّلُ أنْ يخسرَ مدرستَهُ وأصدقاءهُ ..

تعاظمَ في قلبهِ الإحساسُ بالظلمِ والقهرِ .. لمْ يعُدْ يفكّرُ بالبردِ والظلامِ والخوفِ ... أحسّ أنّهُ يريدُ أن يصرخَ .. أنْ يمنَعَ الاحتلالَ .. أن يواجهُ الدبّاباتِ والجنودَ .. فحملَ حجراً وضربَهُ على الدبّابةِ ..

كانَ الجُنديُّ مُنشغلاً بالنّظرِ في اتجاهٍ آخَرَ، تجاهَ المَنزلِ الذي يُدمّرُهُ رفاقُهُ.. فأصابَ الحجرُ رأسَهُ مُباشرةً ... وكانتْ على رأسِهِ خُوذةٌ حديديةٌ فانطلقَ الحجرُ باتجاهِ زَميلِهِ فأصابَ عينَهُ وأخذَ يصرخُ من الألمِ . والتفتَ الجنديُّ إلى حَيثُ سَعيد فوجّهَ إليهِ فوهةَ مدفعِ دبّابتِهِ... لا يُصدّقُ أحدٌ في الدُّنيا أنّ حجراً صغيراً يُصيبُ الجُنديّ، سيكونُ مقابلَهُ قذيفةُ دبابةٍ .. ولمْ يتوقعْ سَعيدُ أبداً أنْ يكونَ الردُّ هكذا ..

ولكنَّ الجُنديَّ الإسرائيليَّ حرَّكَ مَدفعَ دبَّابَتِه الضَّخمَ وأطلقَ قذيفةً ضخمةً على سَعيد ... فانفجَرتْ في خَاصرتِهِ .. وتدفّقَ الدَّمُ ساخناً من جَسَدِهِ .

ارتمى سَعيدٌ على الأرضِ ، كانَ البَردُ لا يزالُ يُجمِّدُ أطرافَهُ و لكنَّ الدَّمَ السَّاخِنَ انسابَ على جسدِهِ فأحَسَّ بالدِّفء ، فابْتَسمَ .. حَاولَ أن يَضعَ يدَهُ على الجُرحِ الذي في خاصرتِهِ ، علّها تُحسُّ بالدِّفءِ المُنسابِ من جُرحِهِ ، فلم يستطِعْ .. سَمعَ صوتاً يَصرخُ ويقول : جريحٌ جريحٌ ، أطلبُوا الإسعافَ .. ولَمْ يعدْ يسمعُ شيئاً .. أغمَضَ عينَيْه وقد ملأ الدِّفءُ جَسَدَهُ وأطرَافَهُ.

كمْ منَ الوقتِ يستغرقُ وصولُ سيّارةِ الإسعافِ إلى جريحٍ في نابلس ؟ سؤالٌ لا يحسبهُ العلماءُ ولا واضعو مناهجِ العلومِ . سؤالٌ لا يعرفُ إجابتَه حتى العالِمُ "اينشتين" الذي وضعَ قانونَ السرعةِ و ربطها بالمسافةِ والزمنِ ..

كم منَ الوقتِ يستغرقُ وصولُ سيّارةِ الإسعافِ منْ مُستشفى نابلس إلى "حيِّ القصبةِ"؟

سؤالٌ لو سُئلَ في عهدٍ غيرِ الاحتلالِ الصهيونيِّ لنابلس لكانت الإجابةُ عليه بسيطةً وبديهيةً ، بلْ ومُضحكةً .. بضعُ دقائقَ فقط ، نعمْ بضعُ دقائقَ .. ولكنَّ الزمنَ في عهدِ الاحتلالِ الصهيونيِّ لا يكونُ هوَ الزمنُ ، والسُّرعةُ لا تكونُ هيَ السُّرعةُ ، والمسافةُ لا تكونُ هيَ المسافةُ ...

دقائقُ و دقائقُ ودقائقُ وساعاتُ وساعاتُ وسعيدُ على الأرضِ لا يدري أحدٌ متى ستصلُ سيارةُ الاسعافِ لنقلهِ إلى المُستشفى .. لم تدعْ أصواتُ إنفجاراتِ بُيوتِ القصبةِ أحداً ينامُ أو يهدأ .. فلما ارتفع الصوت طالباً الإسعافِ ومنبهاً إلى وقوعِ جرحى في الحيّ ، اقتربَ البعضُ بحذرٍ من الجريحِ ...

مِنْ بعيدٍ .. انطلقَ صوتُ إياد منادياً : سعيد .. سعيد.. صديقي سعيد .. ما الذي جاءَ بكَ إلى هُنا في هذا الوقتِ ؟؟!!

لمْ يستطعْ إيادٌ إلا أنْ يقتربَ من سعيدٍ ، وأنْ يَضُمَّهُ إلى صدرِهِ.. وفتحَ سَعيدٌ عينيهِ نِصفَ فتحَةٍ ... وابتسَمَ ..ظلَّ إيادٌ يرددُ وهوَ شبهِ مجنونٍ..
لماذا حَضرْتَ ياسَعيدُ إلى " حيِّ القصبةِ " ؟ ولماذا ضَرَبَكَ الجُنديُّ الحَاقدُ بالمدفَعِ الكبيرِ بهذهِ الوحشيَّةِ ؟!
كانتْ طلقةٌ صغيرةٌ واحدةٌ تكفي لقتلِ الطفلِ سعيدٍ ، ولكنَّ الجُنديَّ الإسرائيليَّ أطلقَ قذيفةً منْ مَدفعهِ تكفي لقتلِ جَملٍ أو نسفِ بيتٍ أو تدميرِ سيارةٍ... فهلْ كانَ جَسَدُ سعيدٍ النَّحيلُ .. البارِدُ .. يتحمَّلُ هذا المَدفعَ ؟

بعدَ أيّام وضَعَ إيادُ إصيصاً من الوردِ على الدُّرجِ الذي كانَ يجلسُ عليهِ سعيدُ .. وهو لا يزالُ يرددُ .. لماذا أطلقوا عليهِ قذيفةَ مَدفعٍ .. ألا يَحِقُ للفردِ أن يزورَ صَديقهُ ليَطمَئِنَ عَليه ؟؟!!!!! .

لا يُصَدِّقُ أحدٌ في الدُّنيَا ...
أنَّ حَجَراً صَغيراً يكونُ مقابلهُ.... قَذيفَةُ مِدفَعٍ..